٦- النجاة

في هذه الليلة الطويلة، كاد الفجر أن يطلع، وكادت عقارب الساعة أن تقترب من الرابعة صباحًا، أما "غريب"مازل نائمًا فوق سريره نومًا عميقًا، وذلك بسبب آثار الحقن المخدرة التي أخذها عقب الحادثة، بيد أنه مازال يعانق بعقله وميض الذكريات التي لا تفارقه، كان يسترجع مرارة الماضي، كانت أمه "حميدة" تجلس بجواره ترقبه بقلبها خوفًا عليه، وتمسح بيدها حبات العرق التي تعلو فوق جبينه، جرّاء معاناته، فقد شق وجدها ما يتمتم به من كلمات غير مفهومة، تارة يصرخ، وتارة ينادي كأنه يخطب في جموع حاشدة، وتارة يهتف باسم "هند"، وكان يكرر مايلي:

- النجدة ياقوم.

- لا تخافي يا هند لن أتركك للموت أبدًا.

تعجبت الأم من قوله، وصراخه، لم تكن تعلم أنه يسترجع الماضي الكئيب، فقد ظنت أن ما يتفوه به مجرد أضغاث أحلام، أو كوابيس شريرة، من آثار جروحه، فظلت بجواره قلقة تدعو له بالشفاء، إلى أن غلبها النعاس فتمددت فوق السجادة على أرضية الغرفة، من كثرة الوهن.

ومازال الفتى بالقرب منها يتصبب عرقًا، تخرج منه أصوات أشبه بصوت حشرجة المحتضر، الذي يئن من سكرات الموت، كان يعيش نفس اللحظات المريرة التي مر بها في عرض البحر منذ سنوات، كأنه مازال يعبر المتوسط

نحو إيطاليا لتوه، كانت قسوة المواقف محفورة في أعماقه حفرًا، قلبه يدق كما ضربات المطارق فوق أقراص النحاس الكبيرة، كان يتذكر بكل جوارحه مأساة رحلته، أثناء السفر.

كان يسترجع الذكرى ممزوجة بآلام الحدث، فكان يسمع صوت صرخات الغرقى يستغيثون من خلفه، للخلاص من الموت، دون مغيث، كانت عينه وهو نائم تفيض بالدموع، كأنه ينعي بروحه كل الضحايا من بني البشر، وهم معلقون بين الحياة والموت، ويبكي بقلبه فراق أقرانه في رحلة العذاب، بعد أن ساقتهم نحو حافة الهاوية أوهام لأمال كاذبة، بالأمس ركب معهم فوق الأهوال، لعله ينتزع الربيع من رحم الفناء.

وحتى هذه اللحظة، مازال يسمع أصوات الأمواج المتلاطمة في أذنه، يتذكر بطش البحر به، وهو يحمل الصغيرة "هند" فوق ظهره، وقد استقر على عدم الخلاص منها لينجو بنفسه، مهما حدث، كان وقتها يطفو في عرض البحر لا يدري ماذا يفعل، فالحروق التي كانت بيده تقترب من الدرجة الثانية، والتي بجسد الصغيرة، ربما تجاوزتها، والماء المالح ينخر في الجلد، ويخترق الفقاقيع، نظر عن يمينه فوجد ربوة صخرية بارزة في وسط الماء، على بعد عدة أمتار منه، بذل كل ما في وسعه حتى وصلها وصعد فوقها، ونام على وجهه فوق بعض الصخور المدببة، فمزق بعضها جلده، بيد أن شدة الإرهاق جعلته لا يشعر بالألم، بعد أن التقط أنفاسه، نهض فوجد الشمس قد أشرقت تخبر الدنيا بقدوم النهار الفصيح، نظر على بعد مئات الأمتار، فوجد قاربًا مطاطيًا لحرس السواحل، ظل يصرخ طالبًا للنجدة، فتحرك نحوه فورًا، أبلغهم بحادثة غرق السفينة، على الفور تم بث نداء الاستغاثة عبر أجهزة الاتصالات، فامتلأ البحر بسفن وقوارب الإنقاذ، بعدها فقد الوعي تمامًا، ولم يدر بما يدور حوله، وتم نقله هو و"هند"إلى مستشفى جزيرة "لامبيدوز"، لإسعافهما، وبعدها إلى مستشفى جزيرة صقلية بواسطة طائرة"هليكوبتر"حيث قسم الحروق، وقرر الأطباء أن علاجهما سوف يستغرق أكثر من عدة أسابيع.

هزت الحادثة الرأي العام بإيطاليا، وتناقلتها صحف أوروبـا، وتصدرت

صور "غريب" وهو يحمل "هند"على ظهره كبرى المجلات، والصحف، ونظرًا لشهامته، أصبح محط أنظار جمعيات حقوق الإنسان، ومنظمات رعاية الطفولة، وعقدت معه الكثير من اللقاءات التليفزيونية، وخلال فترة العلاج بالمستشفى تعلقت"هند" بـ "بغريب"، فقد أمضت معه شهرًا آخر، وبعد العلاج من آثارالحروق تم إجراء جراحة التجميل لهما، كانت"هند"تبكي إذا غادر جوارها، كأنه أمها وأبوها، وقد عاشت هي في قلبه ابنة محبوبة. وأثناء فترة العلاج، وتحت ظرف إنساني بالغ الثراء، عرضت عدة جمعيات خيرىة لرعاية الأيتام، استضافة "هند"، بيد أن ارتباطها وجدانيًا بغريب كان مشكلة كبرى، ولحل المشكلة اقترحت جمعية "الطفولة البريئة" البحث عن أم بديلة على أن يظل غريب معهما حتى تتأقلم الصغيرة عليها، ثم يتم ترحيله بعدها.

تقدمت للقيام بذلك الدور مدام "ماري" إخصائية الطب النفسي بروما، على أن تتبناها لتربيها معها بمنزلها، وقد وافقت جمعية"الطفولةالبريئة"على ذلك العرض، نظرًا لأنها أرملة حسنة السمعة، ولم تنجب، ولائقة صحيًا، فهي في سن الأربعين، وقادرة على رعايتها، وسوف تعاملها كأم حقيقة، ومن ثم اتفقت الجمعية مع "غريب" بأن يصحبهما بعضًا من الوقت، وذلك بالتنسيق مع الحكومة الإيطالية للسماح له بالتواجد شهرين لذات الغرض، وبالإقامة مع مدام"ماري"في شقتها، حتى تحدث الألفة بينها وبين الصغيرة، بيد أن "غريب" رفض الأجر، وقرر أن يمكث هذه المدة معهما حبًا في مواساة الطفلة المكلومة في والديها.

ازداد إعجاب مدام"ماري" بالفتى المصري، فهو رغم ظروفه المادية الصعبة رفض الحصول على أجر مقابل المشاركة في رعاية "هند"، كانت "ماري" رقيقة تعشق الجوانب الإنسانية في العلاقات البشرية، وتقدس القيم التي تحض على المساواة بين الجميع، كانت مؤمنة بالمبادئ الرفيعة، ومهتمة بنشر ثقافة السلام من خلال مقالاتها الصحفية بالكثير من الجرائد الكبرى، وتقف بقلمها خلف سياسة دعم الدول الفقيرة دون أغراض سياسية، كانت ناجحة في عملها، ووضعها المادي جيد، بعد أن ورثت ثروة طائلة عن زوجها.

في اليوم الأول من اصطحاب "غريب"إلى شقتها الفاخرة، حددت له غرفة كبيرة، وأبقت "هند" في غرفة مستقلة يصطحبها الاثنان تارة، وأحدهما تارة أخرى، ولكنها عندما دخلت معه في أول حوار حقيقي أبدت دهشتها من مغامرة السفر قائلة له:

- ماري:المدهش أنه رغم إنسانيتك ونبلك أنك تخالف القانون، أنت تعلم أن الهجرة غير الشرعية انتهاك للقانون.

- غريب: أعلم ذلك، وربما أخطات، ولكن عليك أن تعلمي أن الإنسانية فوق القانون، لقد جئت هنا أغامر بروحي فرارًا من اليأس، لو كنت في موقفي لعرفت حجم معاناتي، وآلام الشباب أمثالي.

- ماري: لا عليك، سوف أساعدك في الحصول على البقاء في أوروبا.

- غريب: كيف؟

- ماري: سوف أتزوجك حتى تنتهي إجراءات الجنسية.

- غريب: ولكني مرتبط بحبيبة، ولا أريد غيرها.

-ماري: لا تقلق الزواج سيكون صوريًا، فقط من أجل استخراج شهادة الجنسية

- الإيطالية، وبعدها سوف يتم الطلاق، وسوف أفعل ذلك إكراماً لإنسانيك.

-غريب: ولكني أريد الجنسية الهولندية.

- ماري:قلت لك لا تقلق لأن الحصول على الجنسية الإيطالية سوف يمنحك الحق في العمل في أي دولة من دول الاتحاد الأوروبي، ومنها هولندا.

شعرت "ماري" ببعض من الغيرة، جراء افتقادها لحبيب بمثل هذا الوفاء، ولكنها مسحت على رأسه برفق، لشدة صراحته ووضوحه، فقد كان من الممكن تلبية طلبها للهروب من الترحيل الجبري، دون إفصاح عن حقيقة مشاعره، مجاملة أو خداعًا، وخاصة أن الشرطة سوف ترحله إلى مصر بعد انتهاء الشهرين.

وبعدها بدأ السعي في إجراءات الزواج، والحصول علي الجنسية الإيطالية، وذلك بالتزامن مع برنامج ترويض الصغيرة حتى تتعود على أمها الجديدة، بدقة متناهية، مر الأسبوع الأول كما خطط له، وأثمرت البرامج التربوية في التأثير على"هند" فتعودت على الأم الجديدة تدريجيا، والتي كانت تتصرف برقة، وحنان دون تكلف.

كانت مدام "ماري" ذات ملامح رقيقة، شعرها أصفر غير طويل، لأنها تقصه باستمرار، عيونها زرقاء جميلة، متوسطة الطول، وممتلئة قليلا، جسدها مغر للرجال، وكعادات الغربيين كانت تحلل من ثيابها، وتتحرك بالشقة بملابسها الداخلية تارة، وبدونها تارة أخرى، دون أن تقصد استدراج الفتى نحوها، لاحظت من الوهلة الأولي حمرة الخجل تلون وجهه، كلما مرت متحررة من ثيابها بجواره، هذا السلوك كان محل اهتمامها، ورغمًا عنها بدأت تدريجيًا تفكر في أن تستقر بين أحضان الفتى.

ومع الأيام، وكلما ازداد خجله منها، تزداد رغبتها فيه، وعلى عكس ما ظنت، وجدت نفسها تفكر فيه رغمًا عنها، فدفعها الشوق نحوه لاحقًا إلى تعمد إلهاب مشاعره، وذلك بالتحرك أمامه عن عمد بطرق مثيرة كعادة حواء عندما تحب، وتمكنت بأنوثتها الطاغية من فك قيود ذلك الوحش المقيد في صدره، وفي ذات مساء وهي تستدعيه بأنثوتها الطاغية، انقض عليها يقبلها، فذهبت تعلمه ما كان يجهله في عالم المرأة، ومن فرط متعتها معه، أخذت أجازة من عملها أسبوعين لتتفرغ لقطف ثمار هذا العسل الذي يتدفق من ثغر الفتى المصري.

طافت به يزوران معظم المعالم السياحية في إيطاليا أحبت فيه دفء الشرق كان حنونًا، ذكيا، ذا خلق، وهي كانت مولعة بالحضارة المصرية القديمة من ذي قبل، تعلقت به، وكأنها رأت فيه جلال الفراعنة، وسحر ملوكها العظماء، كثيراً ما كانت ترغب في زيارة مصر، ولكن ظروف العمل كانت تدفعها نحو التأجيل مرة تلو أخرى.

قضي "غريب"معها فترة جميلة رقيقة، اكتشف كل منهما مدى صفاء روح الآخر، فتوطدت العلاقة نحو منحى إنساني نادر، بيد أن "ماري"مع الأيام ذابت فيه عشقًا، ومرت اللحظات السعيدة عليها بسرعة البرق، ولم تشعر بها حتى أخبرها "غريب" بأنه سوف يرحل إلى هولندا، لقرب مرور الشهرين، فشعرت بالحزن لقرب فراقه.

وفي نهاية الأسبوع الأخير معها، وقبيل الرحيل بيومين لاحظ "غريب"عليها كثرة الإغماءات، والتقيئ، ارتبك قليلاً خوفًا من أن تكون قد حملت منه، وخاصة بعد أن أخبرته أن الدورة الشهرية قد تأخرت عن موعدها ثلاثة أسابيع، ولكنها طمأنته

بأنها لا تنجب، وأن الموضوع لا يعدو كونه وعكة صحية، هدأت روحه؛ لأن هذا الأمر كان سيربك كل حسباته.

حان وقت الرحيل، وبدأ"غريب" يجمع ملابسه، وقلبه يكاد ينشطر، من فراق الصغيرة، فحبه لـ"هند" ملك فؤاده، أما "ماري" فقد حاولت إثناءه عن السفر للبقاء في إيطاليا، ووعدته بتدبير عمل مناسب له في مصنعها الذي ورثته عن زوجها الأول، ولكنه أصر على الرحيل، وعندما وجدها قد تعلقت به تعلقًا شديدًا، عاد يذكرها بقصة حبه، وبالعهد الذي قطعه على نفسه، بالعودة لحبيبته "رجاء"التي تنتظره في مصر، معللاً أنا استمراره معها خيانة لهذا الحب.

انطلقت تسأله بلهفة عن "رجاء"، وعن حبه، مبهورة ببعض طباع الشرق، وخاصة عاطفة الحب والعلاقات الاجتماعية بين الأسر وذويها، كان يجيبها بكلام كله رقة، وعذوبة، فتمنت أن يكون لها حظًا من حياة الشرق.

كانت "ماري"في الفترة المنصرمة تشعر بأن الفتى معها بجسده فقط، وبعد كل لقاء يجمعهما، كان يحني رأسه خجلا من شيئ ما، لم تستطع تفسير ذلك في حينه، ولم تكن تدري سببًا لهذا الحاجز أثناء اللقاءات الملتهبة، شعرت بأنها كانت بالنسبة له مجرد دمية جنسية يعبث بها، لتحقيق متعة لحظية، ورغم

أنها منحته مشاعرها بصدق، لم يمنحها سوى جسده، أدركت أن "رجاء" كانت هي الحائل بينها وبين قلبه.

وبعد أن حسم أمـره، وقبيل الرحيل قبّل"هند" عدة قبلات مصحوبة بدموع الفراق، وودع "ماري"بكلمات رقيقة، وامتنان، وسلمها توكيل رسمي للقيام بإجراءات الطلاق أينما مرت الفترة القانونية للحصول على الجنسية، وخرج مسرعًا حتى لا يضعف أمامها، تركها مبعثرة الجوارح، تلملم شتات نفسها من عالم الهوى دون جدوى، فانحنت تقبل الصغيرة "هند" وتحتضنها، وكأنها تشكو لها مرارة الفراق، لعلها تجد فيها السلوى، ولكن هيهات للسلوى أن تطأ القلوب الهائمة، ولولا أنها علمت شدة حبه لغيرها، ووفائه لهذا الحب، ما تركته يخرج من حياتها إلى الأبد.

ذهب "غريب"إلى المطار، واستقل الطائرة إلى هولندا، قاصدًا صديقه "علاءبكر" الذي استقبله في المطار عقب وصوله، واصطحبه معه إلى المزرعة ليعمل معه.

بعد يومين استلم العمل، وبعد شهر بدأ يبحث عن عمل إضافي، فقد كانت وردية العمل ثمان ساعات، وهو يرىد أن يعمل وردية أخرى، فالتحق للعمل وردية مسائية بمصنع للجبن بجوار المزرعة، وبقي طوال خمس سنوات على هذا الحال، وقد منحه هذا العمل فرصة لجمع المزيد من المال الذي جاء من أجل جمعه، علاوة على إنفاق الوقت في العمل؛ للإفلات من أحضان النساء، وللوفاء بعهد الحب مع حبيبته "رجاء" بمصر، وكان يلتقي بها في منتصف ليل السبت من كل أسبوع، تارة يحدثها على الإنترنت وتارة يكتب لها الرسائل النصية على الفيس بوك.